

## الظالمون يوم القيامة

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿١٢١﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفِيدُهُمْ هَوَاءً ﴿١٢٢﴾ وَأُنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَايْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ ۗ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن زَوَالٍ ﴿١٢٣﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿١٢٤﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِن كَانَتْ مَكَرُهُمْ لِيُرْوَلَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿١٢٥﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ ۗ رُسُلُهُ ۗ إِنَّا اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿١٢٦﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۗ وَرَزَوُا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْفَهَّارِ ﴿١٢٧﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿١٢٨﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿١٢٩﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٣٠﴾ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ۗ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٣١﴾ (إبراهيم: ٤٢-٥٢) .

مصير الظالمين :

يأتي الشُّوط الأخير من هذه السورة الذي يشتمل على آياتِ كلِّها وعيد ، نحن نعلم أن القرآن دائماً ينزل بين الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، ولكن هذا

الشوط من الآيات كله وعيد وتخويف ؛ لأنه يتعلّق بمصاير الظالمين ، ولا نجد كتاباً كالقرآن اهتمّ بمحاربة الظلم ، ومقاومة الظالمين ، والتّحذير من شرّهم ، وما أعدّ الله لهم من سوء العقاب في الدنيا والآخرة ، لأنّ القرآن الكريم يهتمّ بهذه القضية غاية الاهتمام .

مَنْ قرأ القرآن مكّيّه ومدنيّه وجد فيه العناية بكراهية الظلم ، وما ينتظر الظالمين من سوء المصير في الأولى وفي الآخرة ، ولذلك تكرّرت كلمة (الظلم) باشتقاقاتها المختلفة : الماضي والمضارع ، واسم الفعل ، والفعل المبني للمعلوم والمجهول ، ظَلَمَ وظَلِمَ ، ويظلم ، والظالمون والظالمين ، عشرات بل مئات الآيات الكريمة في هذه القضية ؛ لأنّ الظلم هو أساس خراب الدين والدنيا معاً ، والإسلام يحبُّ من المسلم ألا يكون ظالماً ، وألا يكون عوّناً لظالم ، فلا يكفي من المسلم ألا يكون ظالماً ، بل لا يكن ظالماً ، ولا يكن سنداً لظالم ، لا يكن له عوّناً ، بل لا يركن إليه ، مجرد الركون - أي الميل للظلمة - يُعرّضك للخطر ، للنار ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (هود: ١١٣) .

عاقبة الظلم :

الظلم سبب الهلاك في الدنيا : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ ۖ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ (الكهف: ٥٩) .

سبب الخراب - خراب الديار والبيوت - كما قال تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا ﴾ (النمل: ٥٢) .

الظلم سبب كل شر ، ولذلك أعلمنا القرآن : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (الشورى: ٤٠) ، و﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (المائدة: ٥١) ، وأنّ الله لا يجعل

للظالمين. فلاحًا : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (الأنعام: ٢١، ١٣٥) (ويوسف: ٢٣)،  
(والقصص: ٣٧) ، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ (طه: ١١١) .

آيات كثيرة تحذّر من الظلم ، ومن شرور الظالمين ، وتعدّهم بأسوأ المصير في  
الدنيا وفي الآخرة .

### جزاء الظالمين في الدنيا والآخرة :

ربما لم يصيب الظالمين - في بعض الأحيان - في الدنيا جزاء ما ظلموا ، أحيانًا  
- بل في أغلب الأحيان - الظالم ينال جزاءً من مصيره في الدنيا قبل الآخرة ، هذا  
الأغلب ، ولكن أحيانًا يترك الله الظلمة إلى الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ  
مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ (الأعراف: ١٨٢، ١٨٣).

يُملي لهم : يُمهلهم ، ولذلك شاع حتى في لغتنا العامية : أن الناس يقولون :  
(يُمهّل ولا يُهمل) . يُملي لهم : يُمهلهم فترةً من الزمان ، ثم تأتي نقمة الله تعاجلهم  
بما لا يخطر ببالهم . وفي هذا جاء الحديث الصحيح : « إن الله ليُملي للظالم حتى  
إذا أخذه لم يُفلته ، ثم قرأ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ  
أَخْذَهُ رَءِيسٌ شَدِيدٌ ﴾ (هود: ١٠٢) <sup>(١)</sup> . يُملي لهم ، ثم يأخذهم أخذًا أليمًا شديدًا ،  
أخذٌ عزيز مُقتدر ، هذا صنْع الله عزّ وجلّ ، وهذا رأينا في ديانا ، رأينا كثيرًا من  
الظالمين ، يلقون مصارعهم أمانا ، وكانوا يظنون أنهم بعيدون عن العقوبات ،  
مطمئنون إلى أنهم بمنجاة .

(١) متفق عليه : رواه البخاري في التفسير (٤٦٨٦) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٣) ، عن  
أبي موسى الأشعري .

كنا في السجن الحربي ، وكان قائد السجن حينما يقول البعض : يا رب ،  
يا رب . يقول : هات لي ربك ، وأنا أضعه في زنزانة . وبعد هذا مات شرَّ ميتة ،  
ومزَّق شرَّ ممزَّق<sup>(١)</sup>!

### إجابة دعوة المظلوم :

أحياناً ينتقم الله سبحانه وتعالى من الناس في هذه الحياة ، يأخذ بحقّ  
المظلومين ؛ لأنّ المظلوم يدعو والله سبحانه وتعالى يستجيب له ، كما جاء في  
الحديث : « ثلاثة لا تُردُّ دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حين يفطر ، ودعوة  
المظلوم ، يرفعها الله فوق الغمام ، ويقول الربُّ : وعزّتي وجلالي لأُنصرك ولو  
بعد حين »<sup>(٢)</sup> . المظلوم يستجيب الله تعالى له :

لا تظلمنَّ إذا ما كنتَ مقتدرًا      فالظلمُ ترجعُ عُقباهُ إلى النَّدَمِ  
تَمَّ عيناكُ والمظلومُ مُنتبهُ      يدعُو عليكُ وعينُ الله لم تَنَمِ<sup>(٣)</sup>

### أخذ الظالمين بغتة :

كثيراً ما يعيش الظالمون في بحبوحة من النِّعم ، ويُخيلُ إليهم أنَّ الأقدارَ نَسيتهم :  
﴿ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ (الأنعام: ٤٤) .

(١) حمزة البسيوني الذي كان مديراً للسجن الحربي في عهد عبد الناصر ، وقد عُرف بفسقه  
وتفنته في ممارسة التعذيب ضد المعتقلين . مات ميتة شنيعة سنة ١٩٦٩ م ، إذ اصطدمت  
سيارته وهو خارج من القاهرة إلى الأسكندرية بسيارة لنقل أسياخ الحديد المخصص  
للبناء ، فمزقت ضلوعه ، ودخل سيخ في رقبته ، وأخذ يخور كما يخور الثور المذبوح .  
(٢) رواه أحمد (٨٠٤٣) وقال منرجوه : صحيح بطرقه وشواهده ، والترمذي في الدعوات  
(٣٥٩٨) وقال : حديث حسن ، وابن ماجه في الصيام (١٧٥٢) ، عن أبي هريرة .  
(٣) ينسب إلى : علي بن أبي طالب .

يقول الله تعالى في شأن هؤلاء : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، أغدق عليهم من الخيرات والنعم عن يمين وشمال ، ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ (الأنعام: ٤٤) ، ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع .

لكل شيء إذا ماتم نقصانٌ فلا يُعزَّر بطيب العيش إنسان<sup>(١)</sup>

﴿ فَقُطِعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام: ٤٥).

وانظر إلى كلمة : ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، قطع دابر الظالمين ، يدل على أن هنالك رباً لهذا العالم يُدبره ، ولا يتركه للجبابرة والظالمين والمستبدّين والمستكبرين في الأرض ، يعيشون في الأرض . هنا يتدخل القدر الإلهي ، فيذيقهم العذاب في الدنيا قبل الآخرة .

ولكن أحياناً يتركهم الله إلى الآخرة ، مَنْ أراد الله أن يشتدَّ عذابه ويدخر له كلَّ العذاب في الآخرة ، لا يُعذِّبه في الدنيا ، مَنْ عذَّبه في الدنيا خفف عنه ، ولكن الذي يدخر له كلَّ العذاب في الآخرة ، يتركه إلى النهاية ، ويموت وهو حاكم وظالم ، وهو غنيٌّ عنده من الأموال ما عنده ، وعنده من الخدم والحشم والقصور ، وقد ظلم الناس وبغى في الأرض بغير الحقِّ ، ولكن يكون العقاب في الآخرة .

كمال العدل الإلهي :

الآخرة هي التي يتحقَّق فيها كمال العدل الإلهي ، الدنيا قد لا يحدث فيها كلُّ العدل ، قد يظلم الظالم ، ويقتل القاتل ، ويسرق السارق ، ويستبدُّ المستبدُّ ، ويعبث بأرزاق الناس وأموالهم وأعراضهم ، ويفعل ما يفعل ، ويسفك الدماء ، ويظنُّ أن يد العدالة قد غفلت عنه ، وأنَّ العدالة في الدنيا لم تنلْه ، فكذلك العدالة في الآخرة .

(١) من شعر : أبي البقاء الرندي .

وهيئات هيئات ، الآخرة هي التي يقوم فيها العدل والقسطاس المستقيم ، تُوفَى فيها كلُّ نفس ما كسبت :

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٢٥٥﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾

(الزلزلة: ٨،٧) .

من لم يرَ جزاءه في الدنيا ، وقد فعل الخير ، ولم يلقَ إلا التنكر والاضطهاد ، وربما قتله الناس ظلماً ؛ سيجد جزاءه على أعماله الصالحة في الآخرة .

ومن أفسد في الأرض ، فظلم وطمع وبنى على عباد الله ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وأكل حقوق الناس ، سيأخذ جزاءه في الآخرة ، العدل الإلهي يتحقق في هذه الدار : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٥٦﴾ أَمْ يُجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يُجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (ص: ٢٧، ٢٨) .

هيئات ، لا يمكن ، ولذلك الظالمون ينتظرهم يوم هائل .

ومن هنا قال الله تعالى لرسوله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، لا ، الله ليس بغافل عنهم ، إنه يراقبهم ، إنه مطلع عليهم ، إنه يعلم سرهم ونجواهم ، إنه يعلم السر وأخفى ، ﴿ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٥٧﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (الملك: ١٣، ١٤) ، إنه يزرخهم وهو عالمٌ بهم .

المقصود بالخطاب في قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً ﴾ :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾

الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ، ولكن المقصود غير النبي ، (إياك أعني واسمعي يا جارة) . الرسول لا يظنُّ أبداً أن الله غافل . ولكن هذا كما جاء في

الآيات الأخرى : ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (يونس: ١٠٥) ، ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ﴾ (الشعراء: ٢١٣) إلخ ، فالمقصود غير النبي ﷺ .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، لا والله ما هو بغافل ، إنه مُطَّلِعٌ علو كل ما يفعلون ، وفي الآية تهديد للمشركين ، وتسلية للمؤمنين .

﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ ﴿ ١١ ﴾ ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴾

### حال الظالمين في الآخرة :

وقد وصف الله حال الظالمين في ذلك اليوم ، فذكر أنها خمس أحوال ، كلُّ حال تُنبئ عن شدة ما يلقونه من هول وفزع .

الحال الأولى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (إبراهيم: ٤٢) ، إنه يوم القيامة ، يوم تَشْخَصُ فيه الأبصار ، العيون مفتحة تنظر أمامها ، متجمدة ، متسعة الأحداق ، كأنها لا ترى .

والحال الثانية : ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ : مسرعين ، كما قال تعالى : ﴿ تَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ﴾ ﴿ ١١ ﴾ ﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ (القمر: ٧، ٨) .

والحال الثالثة : ﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ : هل مقنعي : خافضي رؤوسهم ، أو رافعي رؤوسهم !؟

اختلفوا المفسرون ، وعلى كلِّ حال فهم لا يستطيعون أن يتحركوا لا يَمَنَّةً ولا يَسْرَةً ، إن كانوا رافعي رؤوسهم أو خافضيها .

والحال الرابعة : ﴿ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾ : الأبصار زائغة لا تتحرك ،  
أطرافها كأنها مسمرة مجمدة من هول ما هم فيه .

والحال الخامسة : ﴿ وَأَفْعِدْتُهُمْ هَوَاءً ﴾ : خِلْوٌ من كل شيء - فراغ - كما  
يقولون عن الرجل الجبان : إن قلبه فراغ . قلبه خِلْوٌ من كل شيء ، وهؤلاء من  
هول القيامة ، جعلهم كما وصفهم الله ، قلوبهم كالهواء ، ليس فيها تفكير ولا تدبير ،  
من شدة هول الموقف .

أوصاف القرآن ليوم القيامة تجعل هذا اليوم يوماً عظيماً : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ  
أَنَّهُمْ مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (المطففين: ٤-٦) ،  
﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا  
وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج: ٦) ، هذا  
هو هول اليوم العظيم الذي ينتظر الظالمين .

المراد بالظلم في هذه الآيات :

هل الظلم هنا هو الشرك ، كما قال تعالى على لسان لقمان : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ  
لِأَبْنَيْهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (لقمان: ١٣) ؟

هل ظلم هؤلاء أنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، وعبدوا مع الله أو من  
دونه آلهة أخرى لا تبصر ولا تسمع ، ولا تضر ولا تنفع ، ولا تملك موتاً  
ولا حياة ولا نشوراً ، هل هذا هو الظلم ؟

أم الظلم هو الاعتداء على خلق الله ، على حرّمات الناس ، على أنفسهم ودمائهم  
وأموالهم وأعراضهم وذراريهم ؟

الظلم يشمل هذا وهذا ، والله تعالى يحرم الظلم بمعنى الشرك ، ويحرم الظلم  
بمعنى الاعتداء على خلق الله .

## خطورة ظلم الضعفاء :

لا يُجيز الإسلام أن يعتدي أحدٌ على أحدٍ ، وخصوصاً العدوان على الضعفاء ، وكلما كان الإنسان أضعف كان ظلمه أشدَّ وإثمُه أعظم .

ومما يروى في الحديث القدسي : « اشتدَّ غضبي على مَنْ ظلم مَنْ لا يجد ناصرًا غيري »<sup>(١)</sup> .

هناك مَنْ يُظلم ولكن له قبيلة تسنده ، له ظهر . كما يقول الناس : مَنْ له ظهر لا يُضرب على بطنه . ولكن هناك مَنْ ليس له ظهر ، وليس له سند . هذا ظلم من أشدَّ الظلم ، وعقابه من أشدَّ العقوبات عند الله عزَّ وجلَّ .

كلُّ أنواع الظلم مُحرمَةٌ ، ظلم النفس حتى بالمعصية ، كلُّ هذا يدخل في الظلم ، حينما أسكن الله آدم وزوجته الجنة قال له : ﴿ وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: ٣٥) ، فالظلم هنا ظلم النفس بالمعصية ، ولذلك حين أكل آدم وحواء من الشجرة : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الأعراف: ٢٣) .

## أنواع الظلم :

الظلم أنواعه مختلفة ، كما جاء في بعض الأحاديث : « ظلمٌ لا يغفره الله » : الشُّرك ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ۖ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (النساء: ٤٨) .

(١) رواه الطبراني في المعجم الصغير (٧١) عن علي بن أبي طالب ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٧٢/٤) : رواه الطبراني في الصغير والأوسط ، وفيه مسعر بن الحجاج النهدي . وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (١٣٥١) .

«وظلم لا يتركه الله» : ظلم العباد بعضهم لبعض ، هذا لا يترك ، لأن كل واحد متمسك بحقه ، يقول : حقي حقي . لا يتنازل أحد لأحد يوم القيامة .  
«وظلم لا يبالي به الله»<sup>(١)</sup> : ظلم العباد فيما بينهم وبين ربهم .  
كل أنواع هذه المظالم مرصودة يوم القيامة ، مؤخرة ليوم القيامة .

إنذار الناس من يوم إتيان العذاب :

﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾

الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ، أنذر الناس كل الناس ، أو أنذر هؤلاء الظالمين؟! اللفظ يحتمل . وقد بعثه الله بشيراً ونذيراً ، ولكن كما قلت : هذه الآيات في مقام الوعيد لا تقتضي التبشير إنما تقتضي الإنذار : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ ﴾ ، حينما يكون الناس في موقف الظلم ، موقف الطغيان لا يليق بهم إلا الإنذار .

والسورة حدثتنا عن الظالمين : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ (إبراهيم: ١٣) ، وحدثتنا عن عاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله ، وذلك فاللائق بهذا الموقف ، وبهذا المقام الإنذار ، لكل مقام مقال ، وهذا المقام يقتضي الإنذار لا التبشير .

(١) رواه البزار (٦٤٩٣) ، وأبو داود الطيالسي (٢٢٢٣) ، وقال الهيثمي في المجمع (٦٢٩/١٠) : رواه البزار عن شيخه أحمد بن مالك القشيري ولم أعرفه وبقيه رجاله قد وثقوا على ضعفهم ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٦١) ، عن أنس بلفظ : «الظلم ثلاثة . . .»

طلب التأخير يوم القيامة إلى أجل قريب :

﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ  
نُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ ﴾

أين كنتم من قبل؟! حينما جاءهم العذاب ، وحقت عليهم كلمة الله ؛ قالوا :  
﴿ رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ ، أمهلنا ، أعطنا فرصة ثانية : ﴿ نُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ  
الرَّسُولَ ﴾ ، نحب دعوة التوحيد ، ولا نشرك بك شيئا ، ونُتَّبِعِ الرسل ، ولا نستكبر  
عليهم . هكذا نجد الناس يَتَمَنُّونَ هذه الفرصة ، حينما فاتتهم .

ينبغي أن يكون القول ويكون العمل في الوقت المُجْزِي ، إنما إذا قلت قولاً بعد  
فوات الأوان فإنه لا يجدي شيئاً ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا ﴾  
(الطور: ١٦) ، لا ينفعكم الصبر .

الصبر ينفع في وقت ، وفي وقت لا ينفع ، التَّمَنِّي ينفع في وقت ، وفي وقت  
لا ينفع .

تمني التأخير حين الاحتضار وفي الموقف وبعد دخول النار :

بعض الناس حين يأتي الموت حينما يحتضر ، يتمنى أن يمهله الله وقتاً آخر ،  
كما قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ  
اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١١﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ  
أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن  
مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢﴾ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

(المنافقون: ٩-١١).

اتركني شهراً ، اتركني أسبوعاً ، اتركني يوماً ، اتركني ساعةً ، اتركني نصف ساعة ، اتركني خمس دقائق ، يتمنى أن يمهل أي وقت : ﴿ وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ﴾ (المنافقون: ١١) ، انتهى الأجل فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، لا يستأخرون ساعة : أي لحظة .

وجاء أيضاً في سورة المؤمنون : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٧﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (المؤمنون: ٩٩، ١٠٠) .

يتمنى الإنسان أن يرجع إلى الدنيا . قد كنت في الدنيا ، وكانت أمامك الفرصة بعد الفرصة ، لكنك لم تنتفع بها !

أحياناً يتمنى الإنسان عند الموت ، ويتمنى في يوم الموقف يوم القيامة ، كما في هذه الآية : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ ، ويتمنى بعد أن يدخل النار ويصطلي حرها وعذابها ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا ﴾ ، أعطنا فرصة أخرى : ﴿ نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم ﴾ ، نعظكم من العمر ، ﴿ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ ، أعطيناكم عمر خمسين سنة ، ستين سنة ، سبعين سنة ، ثمانين سنة ، ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ ، وحدركم وتلا عليكم آيات الله ، ورغبتكم ورهبكم ، ﴿ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (فاطر: ٣٧) .

بعض هذه التمنيات ردَّ الله عليها بمثل هذه الآيات : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ ، وبعضها لم يرد عليها : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِن عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠٦-١٠٨) . انتهى الأمر ، لم يعد هناك مجال للحديث ، احسبوا فيها ولا تكلمون .

الإنسان أمامه الفرصة في الدنيا أن يتوب من معاصيه ، أن يثوبَ إلى رُشده ، أن يرجع إلى ربِّه ، أن يقف على بابهِ ، أن يقول ما قاله أبوه آدم وأمه حواء : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الأعراف: ٢٣) .

ولكنَّ الإنسان ضيَّع هذه الفرصة ، وجاء يوم القيامة يقول : ﴿ رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ ، والله تعالى يقول في شأن هؤلاء : ﴿ وَلَوْ رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوْا عَنْهُ وَيَاهُمْ لَكَذِبُونَ ﴾ (الأنعام: ٢٨) .

هم يقولون أَخْرْنَا ، لكنَّهم حين يعودون ستغلبُ عليهم أنفسهم الشريرة ، ويعودون إلى ما كانوا عليه .

قسم الكفار بعدم بعثهم بعد الموت :

﴿ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾

ردَّ الله عليهم : ﴿ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ !!  
أتقولون هذا الآن ونسيتم أنكم حلفتم بالأيمان المغلظة أنكم لن يزول عنكم ما أنتم فيه من نعيم ، حتى ولو متُّم لن تدخلوا النار ، ولن يعاقبكم الله!!

بعضهم يقول : إنه لن يبعثهم : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ﴾ (النحل: ٣٨) .

والبعض قال : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ (الكهف: ٣٦) ، حتى ولو متُّ ورجعتُ ، لأجدنَّ خيراً ممَّا كنتُ فيه منقلباً

- خيراً من الحديقة ، من جنَّته هذه ، سوف تكون آخرتي أحسن من الأولى !

هؤلاء مغرورون ، غرَّتهم أنفسهم ، وغرَّتهم الأمانِيُّ ، وغرَّهم بالله الغرور .

السكن في مساكن الظالمين وعدم الاعتبار بهلاكهم :  
﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾

سكنتم في مساكن الظالمين الذين هلكوا من الأمم السابقة ، التي كفرت بالله ،  
وكذبت رسله ، وفعلت ما فعلت من مظالم ومآس ، حتى نزل بهم عقاب الله ، كما  
قال الله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ  
مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ (إبراهيم: ١٣، ١٤) .

الظالمون سكنوا بعد ذلك ، سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم كعاد وثمود ،  
أما المؤمنون فاعتبروا .

﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾

لم يعتبر الظالمون والمشركون بدروس الماضين ، لم يأخذوا درساً لما حدث  
بمن قبلهم ، فأصابهم ما أصاب من قبلهم : ﴿ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِعَادِ  
قَوْمِ هُودٍ ﴾ (هود: ٦٠) ، ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ  
جِثْمِينَ ﴿٧٧﴾ كَانِ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودٍ ﴾  
(هود: ٦٧، ٦٨) .

أراكم الله كيف أهلك الظالمين : ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ تبين لكم  
كيف نكلنا بهم وعذبناهم على جرائمهم .

﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾

﴿ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ ، في القرآن الكريم ، وحتى في الأمم السابقة ؛ لأن  
هذا سيكون للظالمين في كل الأمم ، كل الظالمين في الأمم سيؤخّرهم الله ليوم  
تَشْخِصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ، ليس يوم القيامة للظالمين فقط من أمة محمد ، بل كل الأمم  
السابقة منذ خلق الله آدم وإلى يوم القيامة ، سيحشرون في هذا اليوم ، وينال كل

منهم عقابه ، وكلّ منهم ضربت له الأمثال ، وقصّت عليه القصص ، وجاءته العبر : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿١﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ ﴿٢﴾ فَمَا تُغْنِ الْأُنذُرُ ﴾ (القمر: ٤، ٥) فلم ينفذ كل هذا فيكم .

مكر الظالمين :

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ .

هؤلاء الظالمون مكرّوا مكرهم الفظيع لإبطال الدعوة ، وكادوا كيدهم لقمع دعوة رسل ربهم ، وللتخلص منهم ، ولكن هذا المكر لم يغيب عن الله عزّ وجلّ .  
 ﴿ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ ، الله يعلم مكرهم ، ويسمع ويرى ويسجّل عليهم ،  
 ﴿ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ﴾ ، معلوم عند الله عزّ وجلّ ، ولكن مكر الله أقوى من مكرهم ، وكيد الله أعظم من كيدهم ، هو أعظم مكرًا وأسرع مكرًا : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ (يونس: ٢١) ، أسرع وأقوى ،  
 ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ (الأنفال: ٣٠) ، مكرّوا بالمؤمنين ، ومكرّوا بأهل الحقّ .

المكر الضعيف :

﴿ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْوَلَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾

هناك قراءتان : قراءة الجمهور : ﴿ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْوَلَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ ، وقراءة أخرى : (لَيَرْوَلُ) .

(إنّ) في القراءة التي نعرفها - قراءة حفص هذه - نقول عنها : إن النافية ، ﴿ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ (فاطر: ٢٣) ، يعني : ما أنت إلا نذير .

﴿ وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ ﴾ ، يعني : وما كان مكرهم لَتَزُولَ منه الجبال ، فإِن كَانَ مَكْرَهُمْ لَتَزُولَ ، يسمونها علماء النحو : لام الجحود . تأتي بعد (ما كان) أو (لم يكن) ، ﴿ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ ﴾ (النساء: ١٣٧) ، نفي الشأن هذا لا يحصل . ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ (الأنفال: ٣٣) ، هذا لا يمكن أن يحدث ، نفي الشأن ليس مجرد نفي الفعل ، وهنا يقول : وما كان مكرهم لَتَزُولَ منه الجبال ، مكرهم هذا مكرٌ ضعيف ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٧٦) ، أي في مقابل كَيْدِ الله ، ومكر هؤلاء في مقابلة مكر الله عزَّ وجلَّ ، لا يمكن أن تزول منه الجبال ، وهذا دليلٌ على أن دين محمد ﷺ ، ورسالة محمد ﷺ في ثبات الجبال ، في ثبات هذه الشُّمِّ العوالي الرواسخ ، لا يمكن أن يزول بمكر الماكرين ، ولا بكيد الكائدين ، ولا بتأمر المتأمرين .

### المكر العظيم :

وعلى القراءة الأخرى : (وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لَتَزُولَ منه الجبال) . هؤلاء يقولون : إنَّ مخففة من الثقيلة ، أي : وإنَّ مكرهم لَتَزُولَ منه الجبال ، فمكرهم مكرٌ عظيم شديد يهدُّ الجبال ويزلزلها ، كما قال الله عن قوم نوح : ﴿ وَمَكْرُؤًا كُبَرًا ﴾ (نوح: ٢٢) ، هذا مكرٌ عظيم يمكن أن تزول منه الجبال ، كما نرى الآن مكر اليهود ، ومكر الصليبيين ، ومكر أعداء الإسلام ، الذين يُعِدُّون الخطط ، وينظرون إلى المستقبل ، ويضعون خُططًا لسنين عديدة ، والمسلمون غافلون ، مكرُّ هؤلاء لَتَزُولَ منه الجبال ، ولكنَّ هذا المكر حتى وإن كان تزول منه الجبال ، ليس له عند الله قيمة ؛ لأنَّ مكر الله أقوى من مكرهم ، وكَيْدِ الله أقوى من كيدهم : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۖ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۖ فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُؤِيدًا ﴾ (الطارق: ١٥-١٧) .

كَيْدَ اللَّهِ أَكْبَرُ : ﴿ وَمَكْرُوهًا مَكْرًا وَمَكْرَتَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَاقْتُلْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ (النمل: ٥٠-٥٢) .

الله سبحانه لا يخلف وعده :

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفاً وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾

إذا رأيت مكرَ الماكِرين ، وتآمر المتآمرين على الإسلام وأهله ، فلا تحسبنَّ الله مُخْلَفَ وعده رسَلَه ، والله وعد رسَلَه بالنَّصر في الدنيا ، وبعقاب أعدائهم في الآخرة سبحانه وتعالى لا يُخْلَفُ وعده ، بخلاف الإنسان الضعيف ، فإنه يخلف وعده .

لماذا يُخْلَفُ الإنسان وَعَدَه؟ الإنسان يخلف وعده لسببين : إمَّا لعجزه ؛ لأنه لا يستطيع أن يُنفِذَ ما وعد ، وعد بأن يفعل كذا . . وبعد ذلك عَجَزَ عن تنفيذ الوعد ، أو لكذبه ، وعد ولم يصدق الوعد ، والله سبحانه وتعالى يستحيل عليه العجز ، ويستحيل عليه الكذب : ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ ﴿ (الكهف: ٩٨) ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ ﴿ (آل عمران: ٩) ، ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ لَا تُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ (الروم: ٦) .

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفاً وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ ، الله سبحانه سينصر رُسُلَه ، ولكن ينصرهم في الوقت الذي يشاء ، إنَّ الله لا يَعْجَلُ لِعَجَلَةِ أَحَدِكُمْ .

كان بعض الصحابة يأتون إلى النبي ﷺ يشكون إليه تسلُّط الكافرين عليهم ، واضطهادهم لهم . خباب بن الأرت ، جاء يشكو إلى رسول الله ﷺ وهو متوسِّدٌ بردة له في ظلِّ الكعبة ، وقال : يا رسول الله ، ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ وكان له مولاة تعدُّبه وتؤذيه وتكويه بالنار .

فقام ﷺ وقال : « كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض ، فيجعل فيه ، فيجاء بالمنشار ، فيوضع على رأسه فيشق باثنتين ، وما يصده ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ، ما دون لحمه من عظم أو عصب ، وما يصده ذلك عن دينه ، والله لِيُتَمَنَّ هذا الأمر ، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حَضْرَمَوْت لا يخاف إلا الله ، أو الذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون»<sup>(١)</sup>.

النصر آتٍ : ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفاً وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ ، لا يمكن أن يُخلف الله وعده ، ولكن كلُّ شيء بأوانٍ ، كلُّ شيء في وقته ، كلُّ شيء عنده بمقدار ، شيء عنده بأجل مسمًى .

الله عزيز ذو انتقام :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾

الله سبحانه وتعالى عزيزٌ غالبٌ ، لا يُغلب ولا يُغالب ، صاحبُ العزَّة والقوَّة ، المنيع الذي لا يُقهر ، وهو ذو انتقام ، ينتقم من أعدائه بما يشاء من الأسباب والوسائل ، وفي الوقت الذي يشاء ، وبالكيفية التي يشاء : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ .

المنتقم من أسماء الله عزَّ وجل :

الإمام ابن القيم يقول : (أسماءُ تعالى منها ما يطلق عليه مفردا ، ومقترنا بغيره ، وهو غالب الأسماء ، كالقدير والسميع والبصير والعزيز والحكيم ، وهذا يسوغ أن يدعى به مفردا ، ومقترنا بغيره ، فتقول : يا عزيز ، يا حلِيم ، يا غفور ، يا رحيم .

(١) رواه البخاري في المناقب (٣٦١٢) ، عن خباب بن الأرت .

وأن يُفرد كلُّ اسم ، وكذلك في الثناء عليه ، والخبر عنه بما يسوغ لك ، الإفراد والجمع .

ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده ، بل مقرونا بمقابله ، كالمانع والضار والمنتقم ، فلا يجوز أن يُفرد هذا عن مقابله ، فإنه مقرون بالمعطي والنافع والعمو ، فهو المعطي المانع ، الضار النافع ، المنتقم العفو ، المعز المذل ؛ لأن الكمال في اقتران كلِّ اسم من هذه بما يقابله ؛ لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم عطاء ومنعا ، ونفعا وضرا ، وعفوا وانتقاما .

وأما أن يُثنى عليه بمجرد المنع والانتقام والإضرار ، فلا يسوغ ، فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرى الاسم الواحد ، الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض ، فهي وإن تعددت جارية مجرى الاسم الواحد ، ولذلك لم تجيء مفردة ، ولم تطلق عليه إلا مقترنة ، فاعلمه ، فلو قلتَ : يا مذلُّ ، يا ضارُّ ، يا مانع ، وأخبرتَ بذلك لم تكن مثليا عليه ، ولا حامدا له ، حتى تذكر مقابله<sup>(١)</sup> .

وأنا وافقت ابن القيم مدة من الزمن ، وأن المنتقم ليس من أسماء الله ، ولكن حينما تأملتُ في القرآن ، وجدت أن صفة الانتقام وصَفَ الله بها نفسه ، فورد في عدة آيات : ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾ (الزخرف: ٢٥) ، ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الزخرف: ٥٥) ، ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَيْدِي آبَائِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٣٦) ، فجاء فعل الانتقام بالفعل الماضي ، وجاء بالفعل المضارع : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ﴾ (المائدة: ٩٥) .

(١) انظر : بدائع الفوائد (١/١٧٧) .

وجاء أيضاً بصيغة ﴿ ذُو أَنْتِقَامٍ ﴾ في أربع آيات من القرآن الكريم :  
 في سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ  
 عَزِيزٌ ذُو أَنْتِقَامٍ ﴾ (آل عمران: ٤) .

وفي سورة المائدة : ﴿ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو أَنْتِقَامٍ ﴾  
 . (المائدة: ٩٥) .

وفي سورة الزمر : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي أَنْتِقَامٍ ﴾ (الزمر: ٣٧) .

وفي هذه السورة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو أَنْتِقَامٍ ﴾ (إبراهيم: ٤٧) .

وجاء بصيغة اسم الفاعل ، ولكن جاء في القرآن بصيغة الجمع : ﴿ إِنَّا مِنَ  
 الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾ (السجدة: ٢٢) ، ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا  
 مُنْتَقِمُونَ ﴾ (الدخان: ١٦) ، ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ﴾  
 (الزخرف: ٤١) ، فجاء بهذه الصيغة صيغة الجمع : ﴿ مُنْتَقِمُونَ ﴾ ، فدلَّ هذا على  
 أن الانتقام يُوصَفُ به الله عزَّ وجلَّ ، وهو ينتقم ممن يستحقُّ الانتقام ، لا ينتقم من  
 مظلوم ، لا ينتقم من مستقيم ، لا ينتقم من إنسان صالح ، إنما ينتقم من الجابرة  
 الذين يبعون في الأرض بغير الحقِّ ، الذين يتسلطون على رقاب الناس ، الذين  
 يدعون أنهم آلهة في الأرض - لا يُسألون عما يفعلون - هؤلاء ينتقم الله منهم ؛  
 ليريبهم حقيقة أنفسهم ، أنهم لا يساؤون عند الله شيئاً ، وأنَّ الله لهم بالمرصاد :  
 ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿١﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٢﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبَلَدِ  
 ﴿٣﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٤﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿٥﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي  
 الْبَلَدِ ﴿٦﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿٧﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿٨﴾

. (الفجر: ٦-١٣) .

هذا هو الانتقام : ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٣﴾ ﴾ (الفجر: ١٣، ١٤)، يراقب كل شيء ، يسمع ويرى ، ثم ينزل عقوبته بالقوم الظالمين .

تبديل الأرض والسموات :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾

الانتقام قد يكون في الدنيا ، وقد يكون في الآخرة : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ ، هذا يومٌ عظيمٌ ، تُبدَّلُ الأرض غير الأرض ، وتُبدَّلُ السماوات غير السماوات . هل تُبدَّلُ ذوات الأرض وذوات السماوات؟ أم تُبدَّلُ أوصاف الأرض أو أوصاف السماوات؟

هل توجد أرضٌ غير الأرض تماماً ، وسماء غير السماء تماماً؟ أم الأرض هي الأرض ، ولكن أوصافها تغيّرت؟ والسماء هي السماء ، ولكن أوصافها تغيّرت؟ حين تقول : تركتُ فلاناً من سنين ، ثم لقيته فوجدتُ رجلاً غير الرجل وإنساناً غير الإنسان . هو هو ، ولكن تركته شاباً فوجدته شيخاً ، تركته مستقيماً الظهر فوجدته محني الظهر ، تركته أسود الشعر فوجدته أبيض الشعر .

قد يكون تغيّر سلوكه ، كان طالحاً فأصبح صالحاً ، كان منحرفاً فأصبح مستقيماً ، أو بالعكس ، فهذا اسمه تغيّر الأوصاف ، فهل تبدل الأرض غير الأرض بمعنى تغيّر أوصافها؟ أم أنّ الأرض تغيّرت تماماً ، وأصبحت أرضاً أخرى ، والسماء أصبحت سماءً أخرى؟!

أبدأ هي هي ، ولكن أوصافها تغيّرت : ﴿ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾ (طه: ١٠٧) ، أصبحت غير ما كانت في الزمن الماضي ، السماء قد طويت ، والشمس كوّرت ، والنجوم انكدرت ، والبحار سُجّرت ، والبحار فجّرت . . إلى آخر هذه الأشياء ، فتغيّرت الأوصاف .

وعلى كل حال سواءً تغيّرت الذات ، أو تغيّرت الصّفات ، فهذا شيء عظيم أن  
تبدّل الأرض غير الأرض ، وأن تبدّل السماوات غير السماوات ، هذا شيء هائل ،  
هذا ما ينتظره الناس في ذلك اليوم العظيم : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

(المطففين: ٦) .

البروز لله سبحانه :

﴿ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

برزوا ، أي : انكشفوا . لم يعد هنالك شيء يستر أحداً ، كل شيء مكشوف ،  
أجسامهم مكشوفة ، وسرائرهم مكشوفة : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ (الطارق: ٩) ، ﴿ أَفَلَا  
يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَمًا فِي الْقُبُورِ ﴿١٦﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ (العاديات: ٩، ١٠) ، كل  
شيء انكشف : ﴿ يَوْمَ هُمْ بَرِّزُونَ لَا تَخْفَىٰ عَلَيَّ أَلَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾  
(غافر: ١٦) ، من الذي يدعى الملك؟ هاتوا الملوك الأباطرة والقياصرة والأكاسرة  
والجبابرة : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ .

الواحد القهار :

﴿ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ، الواحد : المتفرد بالربوبية ، الذي ليس له شريك  
ولا ندُّ ولا مثلٌ ولا شبيهة ، ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٢٠﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾  
(الإخلاص: ٣، ٤) ، ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِّنَ الدُّنْيِ ﴾  
(الإسراء: ١١١) ، الله الواحد الأحد .

والقهار : الغلاب الذي يقهر ولا يقهر ، ولا يقف أمام قدرته شيء ، ولا يعجزه  
شيء في الأرض ولا في السماء ، هذا هو القهار . وهنا جاء هذا الاسم في وقته وفي  
مكانه وفي مقامه .

## الرد على دعاوى المبشرين والمستشرقين :

المبشرون والمستشرقون يقولون : إن إله المسلمين إله عنف ، وإله المسيحيين إله محبة وإله رحمة ، إنما إله المسلمين إله شدة وإله عنف ، فوصف نفسه بالجبار ، ووصف نفسه بالقهار .

وهذا في الحقيقة افتراءً على الإسلام ، وافتراءً على القرآن ؛ لأن ربنا وصف نفسه بالجبار في آية واحدة في القرآن ، في أواخر سورة الحشر : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلْمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ (الحشر: ٢٣) ، مرة واحدة ، وهو جبار على المتجبرين ، ووصف نفسه بالقهار في عدة آيات ، وكلها جاءت في موضعها : ﴿ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (يوسف: ٣٩) ، ﴿ قُلِ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (الرعد: ١٦) ، ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنَّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (ص: ٦٥) .

هنا يقول سبحانه : ﴿ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ ، حتى لا يطمع الطامعون من الذين يظنون أن آلتهم تشفع لهم يوم القيامة : ﴿ وَأَخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ (مرم: ٨١) ، وليكونوا لهم شفعاء يوم القيامة ، هذا كله باطل ، ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ﴾ (الزمر: ٤٤) ، لا يشفع أحدٌ إلا بإذن الله ، ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ (الأنبياء: ٢٨) .

ولا يشفعون إلا لأهل التوحيد ، وليس هناك غيره ، هو ملك هذا اليوم : ﴿ لِمَنِ الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (غافر: ١٦) ، هذا القهر في هذا المقام مفهوم ومعقول ، وجاء في مناسبتة ، وجاء في مكانه .

أما القرآن فهو يصفُ الله سبحانه وتعالى بالرحمن الرحيم ، أرحم الراحمين ، خير الراحمين ، كم تكررت في القرآن أرحم الراحمين على لسان الأنبياء ؟

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٣) ،  
﴿ قَالَ اللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (يوسف: ٦٤) ، ﴿ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ  
أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (يوسف: ٩٢) ، ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾  
(المؤمنون: ١١٨) .

وفي مائة وثلاثة عشرة سورة تبدأ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ، والفتحة :  
﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾  
(الفتحة: ١-٣) ، ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾  
(البقرة: ١٦٣) .

نحن نبدأ أكلنا وشربنا وحياتنا بالبسملة ، نقول : (بسم الله الرحمن الرحيم) ،  
لُشيعَ الإسلامُ جوَّ الرحمة بين المؤمنين ، فالزعم بأنَّ إله المسلمين إلهُ شدةٍ وعنفٍ ،  
زعمٌ لا أساس له .

حال المجرمين يوم القيامة :

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾

﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ ﴾ ، يوم القيامة ، يوم يأتي الناسَ العذابُ ، يوم تُبدلُ  
الأرضُ غيرَ الأرضِ والسموات ، يومَ البروزِ لله الواحدِ القهارِ .

ذكر الله تعالى للمجرمين أحوالا ثلاثة :

الأولى : أنهم مُقْرَنُونَ فِي الْأَصْفَادِ .

والثانية : أنَّ سُرَابِيلَهُمْ مِنْ قَطْرَانَ .

والثالثة : أنَّ النارَ تَغْشَى وَجُوهَهُمْ .

وقد ذكر سبحانه وتعالى أولاً وصفهم بالإجرام ، لأنَّ ما كسبوه من جرائم في اعتقادهم ، وفي أعمالهم ، وفي إفسادهم في الأرض ، هو السبب فيما ينالون من عقاب .

وقوله تعالى في الحالة الأولى : ﴿ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ ، بعضهم مقروناً ببعض في القيود والأغلال ، كما نرى المجرمين في الدنيا حينما يساقون للمحاكمة ، حينما يُقبض عليهم مُتلبِّسين ، يُربطون بالسلاسل والأغلال والقيود ، كما جاء في سورة الرحمن : ﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيئَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴾ (الرحمن: ٤١) ، وفي سورة غافر : ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ (غافر: ٧١) ، هكذا يعاملون بشدَّة وقسوة . هذه هي الحالة الأولى للمجرمين .

ثياب المجرمين :

﴿ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ ﴾

والحال الثانية : سراويلهم : جمع سربال ، أي ثيابهم وقمصهم التي تلامس أجسادهم من قطران ، القطران : هذا مركب كيميائي يُستخرج من بعض الأشجار ، فيتكوّن منه هذا المركب ، أسود اللون ، منتن الرائحة ، شديد الحرارة ، سريع الاشتعال ، كانوا يدهنون به الإبل الجربى ، لحرق الجرب بحدّتها وحرّها ، فهذا القطران سراويل المجرمين - ثياب المجرمين - من هذا القَطِرَانِ ، والمراد : أنّ القطران يستر أجسادهم كالثياب ، وأنّ قمصهم المتصلة بأجسادهم اللاحقة بهم نيران مشتعلة ، فالنار تحوطهم من كلّ ناحية في أجسامهم .

وجوه المجرمين :

﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴾

ولكن السراويل أو القمصان لا تغطي الوجوه عادة ، فتجيء الحال الثالثة ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴾ ، أي : النار تستر وجوههم كما ستر القطران الملتهب أجسامهم ، ووجه الإنسان هو أعزُّ شيء عليه في جسمه ، وهو أحرص ما يكون على حمايته ، وإذا كانت تغشاها النار ، فما بالك بسائر الجسم؟! كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (الزمر: ٢٤) ، المفروض في الإنسان أن يتَّقِي بكلِّ شيء إلا بوجهه ، إنَّما أن يتَّقِي بوجهه معناه الهلاك المحقَّق ، فهنا تغشى وجوههم النار ، تعلوها وتُغَطِّيها النار ، تُغَطِّي هذه الوجوه وتعلوها النار .

الجزاء العادل :

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾

لماذا هذا كله؟ ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ (إبراهيم: ٥١) ، هذا يوم الجزاء العادل ، هذا يوم ينال كلُّ امرئ نصيبه ممَّا يستحقُّه ، إنَّ خيراً فخير وإنَّ شراً فشرٌ ، لا تُظَلِّمُ نفسٌ شيئاً ، ﴿ وَإِن كَان مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (الأنبياء: ٤٧) ، يُحَاسِبُ كلُّ إنسان على الصغير والكبير ، والنَّقِير والقَطْمِير .

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ ، ما عملت ، خصوصاً ما عملت من سوءٍ ؛

لأنَّ المقام مقام وعيد ، لا يتحدث عمَّا عملت من خير ، كما في مقام آخر : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (آل عمران: ٣٠) .

هناك في آل عمران : ﴿ مَا عَمِلْتُمْ ﴾ ، وهنا : ﴿ مَا كَسَبْتُمْ ﴾ ، ﴿ ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (يونس: ٥٢) ، ما كسبت الأنفس من سوء ، يجزيها الله تعالى عليه ، فهذا يوم الجزاء على سوء الأعمال ، كما قال تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۗ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٤٩) .

سرعة الحساب :

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

الله سبحانه أسرع الحاسبين ، أي سرعة هذه؟ عرف الناس سرعة الحساب في عصرنا عن طريق الكمبيوتر ، يسمونه الناس بالحاسب الآلي أو الحاسوب أو المحساب أو الحاسبة ؛ لأنه سريع الحساب !

هذا أرانا شيئاً من سرعة الحساب الإلهي كيف يكون ، كيف يحاسب الملايين ، بل البلايين من أوّل خلق آدم إلى يوم القيامة ، سوف يحاسبهم في وقت واحد كيف؟

أرانا ربنا سبحانه بعض الآيات لنعرف كيف يكون الحساب يوم القيامة .

ومعنى أنه سريع الحساب : أنه ليس هناك مجال لأن يقول أحد : أمامي ألف

سنة أو أكثر حتى ينتهي الحساب ، وأنا مستريح إلى أن ينتهي . لا هو سبحانه سريع الحساب ، الحساب آتيك أسرع ما يكون ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ .

## البلاغ الإلهي :

﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ ﴾

ثم ختم الله سبحانه وتعالى هذه السورة ، أو هذا الشوط من السورة بهذه الآية الكريمة ، هذا البلاغ الإلهي : ﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِءَ وَيَلْعَلُمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ ، ﴿ هَذَا ﴾ ، إشارة إلى القرآن الكريم ، أو هو إشارة إلى سورة إبراهيم ، أو هو إشارة إلى هذا الشوط من السورة ، من هذا القسم الذي فسّرناه من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾ (إبراهيم: ٤٢) ، إلى آخر السورة ، كلُّ هذا محتمل .

﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ ﴾ ، يجب أن يُبلَّغ به النَّاسُ ، وقد بلَّغ الرسول ما أمره الله به : ﴿ يَتَأْتِيَا الرُّسُولُ بَلَّغٌ مَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (المائدة: ٦٧) ، هذا بلاغٌ إلهيٌّ يجب أن تسمعه الآذان ، وتعيه القلوب ، هذا بلاغٌ للناس ، ولا يبليُّ الله النَّاسَ إلا ما يهتُمُّهم ويسعدهم في دينهم ودنياهم ، ما ينتفعون به في الآخرة والأولى ؛ لأنَّ الله ليس له حاجة إلى خلقه ، الله سبحانه غنيٌّ عن العالمين ، ﴿ يَتَأْتِيَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (فاطر: ١٥) ، الله يبليُّ خلقه كلَّ ما فيه خيرهم ومصلحتهم في الدنيا والآخرة .

الإندار بالبلاغ :

﴿ وَلِيُنذِرُوا بِهِ ﴾

﴿ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ ﴾ ، لِيُخَوِّفُوا بِهِ ، لِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ إِذَا عَصَوْا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ ، فَإِنَّمَا يَنْتَظِرُهُمْ هَوْلٌ أَيْ هَوْلٌ ، وَعَذَابٌ أَيْ عَذَابٌ ، مِنْ هُنَا جَاءَ الْإِنذَارُ وَلَمْ يُذَكَّرِ التَّبَشِيرُ ، ﴿ وَلِيُنذِرُوا بِهِ ﴾ .

الحقيقة العظمى :

﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ﴾

ليعلموا هذه الحقيقة التي أنزل الله بها الكتب ، وبعث الله بها الرسل ، وحققت بها الحاقّة ، وقامت بها القيامة ، ووقعت بها الواقعة ، وقامت سوق الجنة والنار من أجل هذه الحقيقة العظيمة : أن الله إلهٌ واحدٌ ، لا ينبغي ولا يجوز أن يُعبد إلا هو ، بهذا بعث كلُّ الرسل ، وبهذا نزلت كلُّ الكتب ، كما قال الله تعالى لرسوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٢٥) .

تذكر أولي الألباب :

﴿ وَلِيَذَّكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

يجب أن يتذكروا ما عليهم من واجبات نحو أنفسهم ، ونحو ربهم ، ونحو أسرهم ، ونحو إخوانهم ، ونحو أمّتهم ، ونحو الإنسانيّة كلّها ، بل نحو الكون كلّه ، نحو الحيوان ، ونحو البيئته .. يجب أن يتذكروا هذا كلّه ، الأنبياء جاءوا ليذكرونها :

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الغاشية: ٢١، ٢٢) ، ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق: ٤٥) .

لكن ليس كلُّ إنسان يتذكَّر ، الذي يتذكَّر وينتفع بالتذكُّرة هم أولو الألباب ، أصحاب العقول ، أما الذين فقدوا عقولهم ، أما الذين ساروا وراء أهوائهم وشهواتهم كالأنعام بل أضلُّ سبيلاً ، هؤلاء لا ينتفعون بعقولهم ، إنما ينتفعُ بالعقول أولو الألباب .

### ذكر أولي الألباب :

والله سبحانه ذكر أولي الألباب في ست عشرة آية من القرآن الكريم : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٩) ، ﴿ وَأَتَّقُونَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ (البقرة: ١٩٧) ، ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (البقرة: ٢٦٩) ، (آل عمران: ٧) ، ﴿ لَا يَأْتِي لَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠) ، ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴾ (المائدة: ١٠٠) ، (الطلاق: ١٠) ، ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ (يوسف: ١١١) ، ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (الرعد: ١٩) ، (الزمر: ٩) ، ﴿ وَلِيَذَّكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (إبراهيم: ٥٢) ، ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (ص: ٢٩) ، ﴿ رَحْمَةٌ مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ (ص: ٤٣) ، ﴿ وَأُوَلِّيكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر: ١٨) ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر: ٢١) ، ﴿ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴾ (غافر: ٥٤) .

أولو الألباب هم أصحاب العقول ، ذلك أن دين الإسلام جاء يخاطب العقل أول ما يخاطب ، هذا الدين دين العقول ، الذين يزعمون أن الدين يُغيبُ عقول الناس - يُخدِّرُ عقول الناس - حتى زعم الماركسيون : أن الدين أفيون الشعوب ،

يُخَدِّرُ الشُّعُوبَ فَلَا تُفَكِّرُ ، وَلَا تُدَبِّرُ أَمْرَهَا ، وَلَا تَعْقِلُ مَا يَجِبُ عَلَيْهَا ، فَإِنْ صَحَّ  
هَذَا فِي أَيِّ دِينٍ مُحَرَّفٍ لَنْ يَصْحَ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ ، الْإِسْلَامُ جَاءَ يَخَاطِبُ الْعُقُولَ ،  
فَهُوَ دِينُ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ ، وَلِهَذَا خَتَمَ اللَّهُ هَذِهِ السُّورَةَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ : ﴿ هَذَا بَلَّغٌ  
لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾<sup>(١)</sup>

(إبراهيم: ٥٢).

مَا أَشَدَّ حَاجَتَنَا أَنْ نَتَذَكَّرَ مَا ذَكَرْنَا اللَّهُ بِهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَفِي هَذَا  
السُّوْطِ الْأَخِيرِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ، الَّتِي يَنْبَغِي حِينَمَا يَقْرَأُ الْمُسْلِمُ أَوْ يَسْمَعُهُ أَنْ تَذَرِفَ  
مِنْهُ الْعَيْونُ ، وَتَجِفُّ لَهُ الْقُلُوبُ<sup>(٢)</sup> ، وَتَقْشَعِرُ مِنْهُ الْجُلُودُ : ﴿ تَقْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ  
تَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ (الزمر: ٢٣) .

اللَّهُمَّ أَكْرَمْنَا بِالْقُرْآنِ ، وَانْفَعْنَا بِالْقُرْآنِ ، وَاجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ ، أَهْلِي  
اللَّهُ وَخَاصَّتَهُ ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، وَأُولَئِكَ الَّذِينَ  
هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ، وَصَلِّ اللَّهُمَّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ  
وَصَحْبِهِ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

\* \* \*

(١) انظر كتابنا : (العلم والعقل في القرآن) .

(٢) اضطربت له القلوب .